الدعاية في سياسة الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830–1858)[1]

د. الحميدة عميراوي

نائب مدير جامعة الأمير عبد القادر– قسنطينة

مقدمة

وسائل الإعلام نتاج ثقافي للمجتمع الحضري، وهي تكشف من جهة أخرى عن قوة التأثير على المتلقي. مثلما توصل مدى التشابك للأحداث وتوجيهها. ومن المؤكّد أن فرنسا لم تطبق سياسة واحدة في الجزائر خلال الفترة الممتدة من تاريخ دخولها عام 1830 إلى غاية سنة 1858. وهي السنة التي تعدُّ نهايةً لمرحلة سياسية متميزة كان للعسكريين خلالها الدور الرئيسي في إدارة الحكم بالبلاد. وبتعيين وزارة الجزائر والمستعمرات تمّ إلغاء التمثيل النيابي ومنع على الجزائريين المطالبة بذلك. مثلما تمّ إلغاء منصب الحاكم العام بحاكم وزير هو جيروم نابليون. وعلى هذا الأساس كانت هذه السنة بداية الحكم المدني.

مارست فرنسا سياسة حربية بتأسيس جيوش متنوعة[2] توسعت بها في كامل البلاد. وطبقت سياسة دعائية فاعلة. بجانب تطبيقها لسياسات أخرى كالسياسة التعليمية والعلمية والاقتصادية. وتمثلت السياسة الدعائية في توزيع المناشير وتأسيس المطبعة وإصدار الصحف وتوظيف الشعر الملحون خدمة لفرنسا وخدمة لتوسعها في الجزائر. والسؤال المطروح هو كيف وظفت السلطة الفرنسية الدعاية؟

ونحاول الإجابة على هذ السؤال من خلال النقاط الآتية:

- دور المستشرقين في الدعاية
- ظهور الصحافة في الجزائر
- وسائل دعائية أخرى غير الصحافة

1 — دور المستشرقين في الدعاية

ارتبطت السياسة الاستعمارية الاستيطانية الأوروبية في شكلها العام والسياسة الدعائية في صورتها الخاصة بدور المستشرقين الذين كان اهتمامهم بالجزائر سابقا عن تاريخ الحملة الفرنسية لما بحكم أن بعضهم كانوا مستشارين للبلاط الملكي الفرنسي منذ تاريخ سابق عن الحملة الفرنسية. ويمكن اعتبار كتابات الرحالة التي تناولت موضوع الجزائر مثل كتابات بيسونال (Peyssonnel) والدكتور شو (Docteur Shaw) مادة خصبة استفادت منها فرنسا[3].

وقد ساعد المستشرقين حين عرّفوا الجزائر للأوروبيين في تأدية هذه المهمة تمكّنهم من دقائق اللغة العربية ومكونات الثقافة العربية الإسلامية. وبناء على هذا كانت للمستشرقين علاقة مباشرة بالتبشير والاستعمار الاستيطاني. فالتبشير والاستشراق وجهان لعملة واحدة. فالأول اتجه إلى عقلية العامة الشعبية سالكا طريق التعليم وممارسة الأعمال الخيرية، متخذا من المستشفيات وصفوف الفقراء ادّعاءً بشّر به الجزائريين بقدوم مدنية أوروبية منقذة. في حين استخدم الاستعمار الاستيطاني مجال الدعاية والبحث العلمي كدراسة تراث ومسوروث المسلمين وترجمتها ونشر المقالات والتدريس.

وكان للمشارقة دور ملموسٌ في الاستشراق بعامة وفي الاستشراق الفرنسي بخاصة إذ كانوا من العناصر المساهمة في نشاط المستشرقين وبالتالي في نشاط الدعاية كنتيجة لما حدث من علاقات مبكرة بين الموارنيين الشوام والفرنسيين، فكان للمشارقة شأن أثناء التوسع الفرنسي في البلاد العربية وخاصة الجزائر.

بهذا يكون الموارنة أكثر اتصالا بالحضارة الغربية وبالسياسة الفرنسية فصاروا خير معين في عملية الاحتلال الفرنسي للجزائر. مثلما كان للعلماء الموارنة الفضلُ في تعريف الغرب بالحضارة العربية – الإسلامية وبالآداب الربانية. مثلما عرّفوا الكثير من العرب بالثقافة الغربية، بحكم أنه سبق للعلماء الموارنة أن قاموا بدور الطباعة باللغة العربية في أوروبا عامة. وفي إيطاليا بوجه خاص. حيث تأسست أول مطبعة بالعربية بأمر من البابا يوليوس الثاني أوائل القرن 16 فتمّ بها طبع أول كتاب بالعربية هو "صلاة السواعي" عام 1514. ثم انتقلت الطباعة إلى جنوى، حيث نشر سفر الزبور عام 1516 بأربع لغات هي العربية والعبرية واليونانية والكلدانية مع ترجمة لاتينية. ثم تأسست مطبعة بالبندقية وقامت بنفس الدور لتلبية رغبات رجال الدين والمغامرين الذين أرادوا معرفة الشرق. ثم تأسست مطبعات في الشام بطرابلس عام 1610 وبحلب أوائل القرن 18 ومطبعة بمدْيَنة الشوير في لبنان عام 1733. إلى أن جاءت الحملات الفرنسية إلى مصر والجزائر وطبقت فيهما سياسة متميزة اعتمدت أساسا على الجانب الدعائي والعلمي.

والسؤال المطروح هو ما هي مراحل هذه السياسة الدعائية في الجزائر؟

يمكن اعتبار الحملة الفرنسية على كل من مصر والجزائر البداية القوية والحديثة لتاريخ الطباعة في البلاد العربية بشكل علمي وواسع. وكانت تلك الطباعة الوسيلةَ الفاعلة في سياسة الدعاية إذ بفضلها عرف العالم العربي الإسلامي النشاط الصحفي رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهته ومنها صدور فتوى من شيخ الإسلام حرّم بها طبع القرآن والتفسير والفقه.

ويمكن أن يؤرخ لدور المستشرقين الملموس في دفع الممارسات الاستعمارية في البلاد العربية بعهد الحملة الفرنسية على مصر. لأنهم هم الذين تولوا الترجمة أثناء هذه الحملة. وكان منهم ومن أبنائهم من تولى الترجمة في جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر. لأن الكثير من مرافقي الحملة على الجزائر كانوا مشارقة[4]. بجانب يهود الجزائر الذين كانوا يقومون عادة بترجمة ما كان يدور بين حكام الجزائر والأجانب قبل عام 1830. ونتج عن فعل هؤلاء المترجمين المستشرقين اهتمام واسع بالتراث الجزائري خاصة بعد أن تم جمع ونشر جزء منه فكانت عملية هامة إن لم تكن "الأولى من نوعها في مسيرة الاستشراق في الجزائر"[5].

ومن بين الذين لعبوا دورا بارزا في عملية استعمار الجزائر والتخطيط له سيلفستر دي ساسي (1757 – 1838) عميد المستشرقين في باريس ومدير مدرسة اللغات الشرقية عام 1824 ومن غير المستبعد أن يكون هو الذي أوحى بفكرة وهي أن يتوجه وفد إلى تونس ويوزع منشورا باللغة العربية الجزائرية على الجزائريين يساهم في التمهيد لحملة عسكرية لكسب تأييد لها من الجزائريين. وبالفعل كانت النتائج بنفس التوقعات تقريبا. حيث أرسل وفد من المخبرين إلى تونس يتكون من رامبار (Raibert) وجيراردا (Girardin) في أفريل عام 1830 برئاسة دوبينوسك (D'Aubignosc) هذا الأخير الذي عُيّن فيما بعد محافظ الشرطة في الجزائر العاصمة حيث عرف هذا الوفد حاكم تونس بمشروع الحملة وفاز بتأييده لها. وبالفعل تمكّن هذا الوفد من الحصول على مساعدات تونسية في سرية تامة[6].

وتمكن هذا الفريق كذلك من توزيع منشور[7] من تونس على الجزائريين يعلمهم بقدوم فرنسا إلى الجزائر. وبعدهم بالتخلص من ظلم "الأتراك". فكان لهذا المنشور أثره على الكثير من الجزائريين وخاصة على الأغنياء منهم. وعلى من كانت لهم أطماع في تولّي مناصب سياسية. وعلى من كانوا متضايقين من النظام السياسي العثماني وهم كثيرون.

وكان زكار المستشرق وهو من الشام ساهم بشكل مباشر في كتابة المنشور الذي وزع على الجزائريين من تونس. وهو الذي تولّى تدريس اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر مدة ثلاث سنوات. ونذكر أيضا دنيوس إبراهيم وهو من مواليد الجزائر. وكذلك حنا فرعون الذي يعد أول مدرس للغة العربية في الجزائر وهو ممن الذين تولوا عملية الترجمة من العربية إلى الفرنسية خاصة ترجمة المراسلات الرسمية التي كانت بين القادة الفرنسيين والشيوخ والحكام العرب.

والسؤال الجدير بالطرح هو لماذا قام المستشرقون بهذا الدور أكثر من غيرهم؟

كان هؤلاء المستشرقون وخاصة السان سيمونيون منهم يخططون لتأسيس نظام حكم في الجزائر متميز يضم كل "الجنسيات" خاصة بعد أن فشلوا في تحقيق ذلك سواء في أوروبا أم في مصر.

ويترجم لنا هذا الاهتمام الأوروبي بالجزائر نفس اهتمامهم بمصر، إذ كانت أولى الأعمال الهامة التي قام بها نابليون بونابرت في مصر تأسيسه للمجمع العلمي المصري بالقاهرة. وكانت أولى جلساته في أوت 1798. ومن الأمور الأساسية التي أهتمّ بها هذا المجمع نشرُ العلم والتنقيب عن الآثار، وضم هذا المجمع 48 من كبار العلماء برئاسة عالم الرياضيات فاسبار مون (Gaspard Monge) ثم أنشأ هذا المجلس العلمي المصري مطبعةً عربية – فرنسية بالقاهرة سميت في البداية المطبعة الشرقية وأسندت إدارتها للمستشرق حنا يوسف مارسيل ولعله أحد أقباط مصر بمساعدة أحد الشوام وهو إيليا فتح الله. ثم أخذت هذه المطبعة اسم المطبعة الأهلية. وقد جمع نابليون لهذه المطبعة حروفا عربية وفرنسية ويونانية وعبرية وسريانية وحروفا قبطية. وأصدرت هذه المطبعة مجلة "العشرية المصرية" (La Décade Egyptienne) باللغة الفرنسية في شهر أكتوبر 1798 أي بعد أقل من ثلاثة أشهر على الاحتلال. وصدرت عن نفس المطبعة جريدة "بريد مصر" (Courrier de l'Egypte). وأصدر المجلس العلمي المصري موسوعة بعنوان "وصف مصر" (Description de l'Egypte) بالفرنسية تتكون من 27 مجلد وتتضمن 3000 خريطة. وقد اكتملت هذه المجلدات عام 1826 أي بعد حوالي 17 سنة من احتلال مصر، وإن كانت الأجزاء الأولى نشرت عام 1809. مثلما أكتشف العلماء حجر الرشيد[8]. فوظفت السياسة الفرنسية مثل هذه الاكتشافات لوسائل دعائية أثرت على العقلية المصرية والعربية معا بما فيها العقلية الجزائرية فيما بعد.

مثلما هاجر الكثير من المصريين والشوام إلى فرنسا بعد أن تنصروا وكانوا أصلا من الشركس مارسوا التجارة والترجمة. ومن غير المستبعد أن يكون هؤلاء المتنصرون من المصريين والشوام هم الذين رافقوا الحملة الفرنسية على الجزائر.

إذن ومما لا شكّ فيه أن الحملة الفرنسية على الجزائر رافقها رجال الثقافة والإعلام الذين وضعوا خبرتهم وطاقتهم في خدمة التوسع وهذا ما يفسر صدور معلقات من رجال السياسة الفرنسية مكتوب عليها: "إن جميع محررينا هم تابعون إلى الحملة العسكرية وهم ملحقون بمختلف الرتب. فقيهم الضباط بمختلف الأسلحة وفيهم رجال الثقافة وحملة الأقلام وفيهم العلماء والتقنيون.. الذين سيعطون لهيئة التحرير متنوعات كثيرة"[9]

2- ظهور الصحافة في الجزائر

ذهب الأمر بالكثير من المفكرين إلى دفع أموال لرجال الحملة مقابل قبولهم في صفوف جيشها حبّا في المغامرة ورغبة في اكتشاف المجهول وطمعا في الحصول على المزيد من الربح. وكان من بين هؤلاء روسو فيس

(Rosso fils) المتخصص في الطباعة الحجرية. وبانضمامه إلى الحملة الفرنسية في بدايتها يكون قد قام بالدور الأساس في السياسة الدعائية بواسطة الصحافة، بجانب زميله جون توسان ميرل[10] (Jean Toussaint Merle). كان هذا الأخير من المستشرقين المصرّين على نشر الصحافة في الجزائر، إذ كان وهو في طولون قد انكبّ على إعداد مشروع قدمه لقائد الحملة يهدف من ورائه إلى ضرورة تكوين جريدة في إفريقيا (الجزائر) حيث ألحّ على ضرورة مصاحبة الحملة بمطبعة. فاستحسن دي بورمون (De Bourmont) ذلك بعد أن تأكد له أنه بهذه الوسيلة الدعائية يسهل الدفاع عن موقف الحكومة أمام المعارضة التي تندد بالحملة[11]. وتأكد له أيضا في تأسيس جريدة على التراب الجزائري تقرأ في فرنسا يكون لها مفعول إيجابي لصالح الحملة. مثلما تكون وسيلة دعائية بجانب القوة المدفعية. وبالفعل قبل هذا القائد المشروع وراسل رئيس الحكومة يوم 18 ماي 1830 لتجسيد هذا المشروع. بل كلف دي بورمون صاحب الفكرة ميرل ليحصل من مرسيليا على ما يلزم لتحقيق هذه الوسيلة. وبحكم خبرة هذا الأخير وعلاقاته القوية مع كبار المهتمين بالطباعة تمكن في أقل من أسبوع من شراء الآلات وانتقاء اثنين من المطبعيين وأثنين من المصففين. وفورا أعلن عن اسم هذه الجريدة قبل تأسيسها وهو "بريد الجزائر" (Estafette d'Alger). وفتح لها أيضا مكتبٌ بطولون لجمع الاشتراكات والقيام بتوزيعها، وحُدد لها مقر كأن يكون إما على ضفاف نهر الحراش أو قصر الداي أو على أحد الشواطئ. وعين رئيس تحريرها ميرل. وتمّ ذلك وفق تصور قائد الحملة.

بالفعل انطلقت الحملة يوم 25 ماي من طولون ووصلت الشواطئ الجزائرية يوم 13 جوان. وفي يوم 27 جوان تمكنت السفينة التي كانت تنقل لوازم المطبعة من تفريغ حمولتها وتنصيب مطبعة غوتنبرغ على الشاطئ وسميت مطبعة المرابط نظرا لقربها من مزار أحد المرابطين. وشرعت المطبعة يوم 28 جوان في عملها بإصدار أول عدد لها في هذا اليوم يحمل تاريخ يوم 25 جوان 1830[12] أي قبل الدخول إلى الجزائر العاصمة بعشرة أيام (1830/7/5) مما يدل على حرص رجال الحملة في تنفيذ هذا المشروع: ولسنا ندري ما إذا كان هذا العدد طبع قبل تنصيب المطبعة وهو الذي نرجحه أم بعد تنصيبها ووضع تاريخ 25 جوان خطأً أو لأهداف أخرى.

ومهما يكن من أمر فقد جاء في العدد الأول من جريدة "بريد الجزائر" بما أمكن ترجمته: "لن تبقى إلاّ بضعة أيام... وتطمئن المسيحية. ويؤخذ الثأر للعلم الفرنسي"[13]. تتبين لنا من خلال هذا ثقة رجال الحملة من الانتصار المحقق والقضاء على جيش حكومة الداي حسين.

وصدر العدد الثاني يوم دخول فرنسا العاصمة وهو يوم الاثنين 5 يوليو 1830. وتوقفت هذه الجريدة عن الصدور بفعل أمور كثيرة كانت في مقدمتها عودة ميرن إلى فرنسا. وقد يكون سبب التوقف هذا راجعا إلى الاختلاف الذي دب في أوساط الجيش نتيجة استفحال الخلاف بين المعارضة والحكومة في باريس حول قضية الجزائر إذ كانت أطراف تطالب بالجلاء عن الجزائر في حين كانت الأغلبية تطالب بالاستبقاء في الجزائر والتوسع فيها. ونتيجة لذلك توقفت الدعاية في الجزائر في صورتها الصحفية الرسمية.

دامت الفترة التي لم تظهر فيها أية صحيفة في الجزائر 21 شهرا من يوم 5 جويلية 1830 وهو تاريخ صدور آخر عدد من جريدة "بريد الجزائر" إلى 27 جانفي 1832 وهو تاريخ صدور أول عدد من صحيفة (Moniteur algérien) التي حملت في عددها التاسع عشر اسم "ورقة خبور الجزائر"[14] بجانب عنوانها الأصلي. خلال هذه الفترة التي لم تظهر فيها أية صحيفة لم تتوقف المطبعة عن العمل إذ كان المقتصد المدني (Intendant civil) هو الذي ينشر ويعلق البيانات ويصدر القرارات التي كانت كلها تطبع في مطبعة الجيش.

والملاحظ أنه لم يكتب باللغة العربية في صحيفة مستقلة أو على صفحات جريدة "ورقة خبور الجزائر" إلا في العدد رقم 26 من صحيفة ورقة خبور الجزائر حيث خاطبت السلطة الفرنسية الجزائريين بالعربية الدارجة وعرفتهم بجزء من القانون الفرنسي المتعلق بالوظائف السامية للدولة الفرنسية بأن حثتهم على عدم التعرض للقضاة والحكام حين يدخلون بيوتهم[15]. ومما لا شك فيه أن لهذا المنشور باللغة الجزائرية أثر بالغ في نفوس الجزائريين. مثلما كان الأثر من الإعلان عن بداية تدريس اللغة العربية للجزائريين على سكان العاصمة إذ جاء في جريدة "خبور الجزائر" ما نصه: "ليمن يحب يتعلم اللغة العرابية من أهل العرب ان المعلم حنا بن لياس فرعون ترجمان كاتم سر حضرة سعادة الجنيرال الكبير سلطان الجزائر يفتح في داره أسطول (مدراسة) ويعطي ليسيون ثلاثة أيام في الجمعة وهم الثلاث والخميس والسبت من الساعة سابعة إلى ثمانية ونسف بلسهرة... وهذا التعليم يدوم ستة اشهر والثاني يكون ستين فرنك ثلاثين نقدا والباقي فيما بعد"[16].

ونفس الشيء بالنسبة لتدريس اللغة الفرنسية لأبناء الجزائر: إذ استخدمت الدعاية بنشر الإعلانات باللغة العربية شجعت الجزائريين على الإقبال لدراسة هذه اللغة. حيث جاء في ورقية خبور الجزائر: "مدرسة كبيرة مفتوحة الآن لاصغار المسلمين لتعلم لغاة الفرنصيص وذلك التعلم من غير دراهم فاصغار المسلمين يتوجهوا كل يوم على الساعة الثمانيه متاع الصبح في مدرسة التي هي بسوق الجمعة...الجنرال الكبير يقدر يلزم المسلمين أن يبعثوا أولادهم في مدرسة الفرنصيص ولكن مراده هو ان يكون هذا الأمر على خاطرهم. اعلموا ان راجل الجاهل الذي ليس عالم أو عارف يدحكوا ويتمسخروا عليه الناس وربنا يعاقب ناس ناكرين الجميل"[17].

وبالفعل أثرت هذه الدعاية فكان الإقبال النسبي على هذا النوع من التعليم اللاتكي. إذ حسب ما جاء في المبشر أن عدد التلاميذ في تزايد إذ بلغ عام 1847 في مدينة عنابة 120 تلميذا وفي قسطينة 70 تلميذا[18].

وكانت سلطة الاحتلال تنتقي المواضيع الحساسة وتبلغها للسكان قصد التأثير عليهم، من ذلك أنها وظفت المقال الخبري التوجيهي لتهدئة نفوس الجزائريين من حدث له أهميته والمتمثل في تحويل مسجد كتشاوة رمز الإسلام في الجزائر العاصمة إلى كنيسة إذ أشاد رجال الحملة في هذا المقال باليوم الذي حول فيه هذا المسجد إلى كنيسة بل عمل هذا الإعلان على مغالطة الناس بالقول أن ذلك كان بسند شرعي إسلامي: "... الجامع المعطى للنصارى... ولا بد نكتب هنا الجواب الذي أرسله المفتي والعلماء للجنيرال حين شاورهم (الذين قالوا له) الجامع امتعنا انه يتبدل دينه ولكن مولاه فلم يتبدل لأن الرب النصارين هو ربنا... هذه الكنيسة هي الأولى منذ مدة أربع عشرة مايا سنة ولا كنيسة غيرها مستقامة في مصر أو في بربريه... ونطلب من ربنا أن تصير كنائس أخرى[19].

ولم تحظ اللغة العربية بمكانة في دور الطباعة من طرف قادة الاحتلال إلاّ في نطاق محدود. وما حظيت به كان خدمة للتوسع الفرنسي وأملا في كسب الجزائريين إلى صفهم. ومن غير المستبعد أن يكون هذا سببا في التعامل باللغة العربية بالشكل المحدود إلى يوم أن أصدر الوكيل المدني بيشون (Pichon) قرارا بإصدار الجريدة الرسمية (Moniteur algérien) باللغتين الفرنسية والعربية. وقد تولى إدارة التحرير بها رولاند دي بوسي ثم خلفه (Adrien Berbrugger) يوم 31 أوت 1835.

ثالث جريدة صدرت في الجزائر هي: "النشرة الرسمية لعقود الحكومة" (des actes du Bulletin officiel gouvernement) صدرت بقرار من الحاكم العام يوم 20 أكتوبر عام 1834 وهي نشرية رسمية اختصت بنشر كل ما يتعلق بالقرارات الحكومية[20]. ويُعدّ هذا نوعا من الصحافة الحكومية الرسمية من بين الأنواع الكثيرة التي ظهرت في الجزائر[21].

ولكن الاستعمار الاستيطاني اتسع بفعل ما كان للمدنيين من تأثير كبير على مجرى الأحـــداث. إذ وظفـوا وسائل الإعلام لتبليغ صوتهم وتوضيح قضاياهم فأسسوا جريدة الأخبار التي صدرت بحروف لاتينية (Akhbar) يوم 12 يوليو1839[22] برئاسة أوغست بورجي (Auguste Bourget) وبترخيص من الحاكم العام فالي (Valée). وكـانت تصدر يوم الجمعة وتستعمل الشهور العربية على صفحاتها. وكانت غير حكومية وتنشر الأخبار الاقتصادية ومـــا يتعلق بالأسفار والهجرة. وجاءت هذه الصحيفة في وقت كثرت فيه الصحف في فرنسا وبلغت 750 عنوانـا منـها 250 عنوانا في باريس فقط. ثم تعددت الجرائد الاستعمارية في الجزائر فكـانت السيبوس (La Sybouse) عام 1843 برئاســة (Dagan) الذي كانت له مطبعة بمدينة عنابة[23]. وجريدة (Courrier de Bône) عـــام 1849. وجريـــدة "الجزائري" (L'Algérien) التي تأسست عام 1852. وبرغم أنها لم تعمر أكثر من ستة إلا أنها أثارت قضايا حساســة من بينها ضرورة الاهتمام بالفلاحة التي تعد مصدر الإنتاج والصناعة وأساس التحول للإنتـــاج والتجـــارة ونقـــل الإنتاج الفلاحي. ولتحقيق هذا دعت هذه الجريدة إلى ضرورة اهتمام الحكومة بالمهاجرين على أن تمنحهم الأراضي من دون قيود. ثم تأسست جريدة طبية عام 1856 باسم (La Gazette médicale) وهـــي مـــن الجرائـــد العلميـــة المتخصصة والمتميزة من بين الصحف التي ظهرت في الجزائر. بجانب الصحف الأخرى الكثيرة.

أمام هذه الحركة الصحفية الاستعمارية الأوروبية فكرت الحكومة الفرنسية في إحداث توازن بين الساكنين في الجزائر "المستعمرة" بما فيهم الوطنيون الجزائريون. فعملت على إصدار جريدة ادعت أنها تخدم الأهـــالي ولكنـــها كانت في خدمة مصالح فرنسا وكانت باسم المبشر. فهي جريدة فرنسية رسمية موجهة للجزائريين تأسست يـــوم 15 سبتمبر عام 1847[24] بمبادرة من الجنرال دوماس (Daumas) وبإيعاز من ملك فرنسا آنذاك. وهي نصـــف شـــهرية تصدر باللغتين.

وبذلك تكون الصحافة قد عرفت طريقها إلى الجزائر أسوة بما عرفته البلاد العربية خاصة باللسان العـــربي. بعد أن سبقتها في الصدور جريدة الوقائع المصرية عام 1828 بمصر. والمرشد العثماني عام 1831 في تركيا. ثم صدرت بعدها جريدة مرآة الأحوال عام 1855 بالآستانة بتركيا التي أسسها رزق الله حسون الحلبي. ثم حديقة الأخبار الـتي أسسها خليل الخوري عام 1858 في بيروت. والرائد التونسي الذي تولى رئاسة تحريرها عـــام (1860) المستشـــرق كرتلي أو رشيد الدحداح (1814-1889).

بجانب الصحافة استغلت فرنسا لونا آخر كان له الأثر في الدعاية ونعني به الشعر الملحون. إذ كان الساسـة الفرنسيون على دراية بما لهذا اللون من أثر على نفوس الجزائريين إذ كانت معانيه تفهم بسهولة مؤثرة. من ذلك أن القادة الفرنسيين اتصلوا ببعض فحول الشعر وطلبوا منهم نظم قصائد يمجدون من خلالها فرنسا وهو الأمر الـــذي

حدث مع الجنرال ديفو (Dewaux) حين طلب من الشاعر محمد السعيد بن علي الشريف في الجنوب الجزائري قائلا: "قد أرسل لنا ما قلت من الأشعار في شأن سيباسطوبول والمارشال بيجو لقد أحسنت... والآن المرغوب منك أن تتكلم بأشعار مثل السالفين في شأن الحملة (الحملة) العام الماضي إلى توقرت وسوف ونريد منك أن تذكر في شعرك الحسن الفسيات (الضباط) الذين حضروا بشجاعتهم لفتنة المغامرين، مثل الكورونيل مارمي... واليطنان عمار بن عبد الله، والسبايس، وعسكر المسلمين، وقوم أولاد دراج. مع ما تحكي من الأشعار... من الظلم الصادر من قبيح الفعل سلمان بن جلاب، واتفاقه مع المفسد محمد بن عبد الله، والمنافق بن ناصر بن شهرة. وإذعان وادي سوف لطاعتنا. وتأسيس أوامرنا مع ابننا سي علي باي ابن المشهور فرحات بن سعيد... وحين ترسل ما طلناه (طلبناه) منك نامر بغناه في جميع السحرا"[25]. إذن تكون دراية ديفو في محلها بأهمية هذا الشعر في وسط العامة وبوقعه أكثر حين يُغنّى لهذا أكّد بقوله: "وحين ترسل ما طلبناه منك نامر بغناه في جميع السحرا (الصحراء)".

بالإضافة إلى توظيف هذا اللون من الدّعاية لصالح فرنسا كان المناصرون لها من الجزائريين الذين اشتغلوا مخبرين يحرضون ضدّ الثائرين لصالح الاحتلال. وإن مراسلات كثيرة تؤكد هذا الأمر منها تلك التي بعث بها كل من الحاج الزين وبوبكر ومحمد بن عمار وصالح بالقوس قائلين: "إلى القبطان (كذا) الجلنار... وكن هنيا من أحمد باي، راه قدم عليه فرحات بن اسعيد أخذ له زوج أعراش من الدابر. وقطعوا خمس وثلاثين راس. وحط عليه في أم الأصناب، وراه في ضيق شديد، وخاله هرب من البلاد حتى بلغ بلاد الحراكتة. وأما هذان الأجواد الذي قدموا منهم بن اسعيد وبن يلس وشيخ ربغة أولاد موصلي وبني مقران والحشم. وهذا ما في علمنا خبرناك به لأنك حاكم بلادنا ومنا... والسلام على... جميع أحبابنا بعنابة، والسلام على من اتبع الهدى"[26].

بناء على هذا تكون السلطة الفرنسية وظفت في توسعاتها الدعاية القائمة على تأسيس المطابع وعلى إصدار الجرائد والصحف وعلى الشعر الملحون وعلى المخبرين من الجزائريين وغير الجزائريين بجانب استخدام وسائل علمية واستغلالها إعلاميا.

من ذلك أن كلوزال وهو من رجال الاحتلال قد قرّب إليه العلماء من مختلف التخصصات ومنهم بربروجر (Berbruger) الذي كلفه بتأسيس مكتبة جزائرية لجمع المخطوطات[27].

ومن باب الربط سبق لنابليون بونابرت أن أسس المجمع العلمي المصري فأنشأ هذا المجلس مطبعة عربية - فرنسية وأصدر موسوعة بعنوان: "وصف مصر" مثلما سبق ذكره. ونفس الشيء عملت به الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) حين أسست "المجلة الإفريقية"[28]. وهي من المجلات العلمية التي اهتمت في تاريخ وآثار الجزائر خاصة العهد الروماني، إذ أن معظم الضباط الذين انكبوا على دراسة الآثار في الجزائر كانوا يراسلون المجلة.

بجانب تلك الجرائد التي اهتمت بجوانب حيوات الناس السياسية والاجتماعية تأسست جريدة طبية عام 1856 باسم (La Gazette medicale) وهي من الجرائد العلمية المتخصصة المتميزة من بين الصحف التي ظهرت في الجزائر خلال هذه الفترة.

بجانب هذا كان حرص السلطة الفرنسية كبيرا على دفع المهتمين على التأليف وعلى تشجيعهم إذ أعلنت بداية عام 1835 عن مسابقة وقدرتها بـ 1000 فرنك لتأليف قاموس شعبي بالفرنسية والعربية الجزائرية لصالح المعمرين الفرنسيين في الجزائر[29]. وقد أعدّ المستشرقون والمترجمون مجموعة من القواميس للهجات المحلية واستغل هذا العمل العلمي في سياسة الدعاية بتشجيع الهجرة الأوروبية وتوسيعها في الجزائر وفي إحداث التقارب بين كل الفئات الساكنة في الجزائر.

وعلى ذكر المترجمين فقد لعبوا دورا هاما بين الفرنسيين والجزائريين، بل بين الحضارتين العربية –الإسلامية والأوروبية، من ذلك أنهم كانوا قد عرفوا الطرفين بثقافة الآخر ونذكر مثالا في هذا السياق ما قدمه أوغست مارتان (Auguste Martin) حين كتب للجزائريين مؤلفا ذا 180 صفحة عن تاريخ فرنسا السياسي وعن ملوكها بعنوان: السيرة السنية في أخبار ملوك الدولة الفرانصوية[30].

وعمل قادة الاحتلال من جهة أخرى على توظيف العلم الحديث في مستوى تلك الفترة كدعاية لاستغلال الأرض الفلاحية وتوسيعها بإدخال زراعات جديدة كالقطن والموز وأشجار الغابات. مثلما أولوا عناية خاصة بالتنقيب على المناجم[31] وحفر الآبار وبناء الجسور وتعبيد الطرقات. الأمر الذي أكسب للصف الفرنسي حظوة بعض السكان بالمنطقة في الجنوب الجزائري الذين رأوا مصلحتهم في فرنسا. فكان هذا مهّد لاحتلال قلوب فئات من الجزائريين قبل احتلال أراضيهم.

3 ـــ وسائل دعائية أخرى غير الصحافة

وكان للترجمة دور أساسي في سياسة الدعاية إذ أنه بحكم العلاقات المستجدة بين الجزائريين والفرنسيين، وبحكم الدافع إلى إقرار سياسة الإدماج والرغبة في المزيد من الهيمنة وظفت فرنسا الترجمة كوسيلة دعائية للوصول إلى ذلك. وقد وجدت في الشوام والمستشرقين الكفاءات للقيام بهذا الأمر، وتولّى هؤلاء ترجمة المراسلات بين الفرنسيين وكل من الجزائريين والدول العربية وإدارة مكاتب الشؤون العربية وكل ما يتعلق بجيش الاحتلال وما يتعلق بالطباعة.

وكانت أسماء كثيرة من المترجمين ومنهم حنا بن ليس فرعون الذي يعد أول مدرس للغة العربية في الجزائر ومن الذين تولوا عملية الترجمة من العربية إلى الفرنسية والعكس خاصة في المراسلات الرسمية التي كانت بين القادة الفرنسيين والشيوخ الجزائريين والحكام العرب[32].

وقد أثرت هذه الدعاية على الكثير من الجزائريين الذين لم يستخدموا وسائل الصحافة كرد فعل مقاوم لهذه السياسة الفرنسية ولكن الذي نسجله من دعاية جزائرية هو ما كان يتم من تعريف المسلمين بما حصل في الجزائر عن طريق الحجاج الجزائريين، وبما كان يقوم به المداحون في الأسواق والمناسبات، وما كان يقول به شعراء الملحون والحكماء والمرابطون، وما كانت تغنيه النساء في المناسبات، وفيما كانت تشهد بعض الكتابات الجزائرية التي فضحت هذه السياسة الفرنسية وتجاوزاتها، وكان في مقدمة هذه الكتابات ما سجله حمدان خوجة حين كتب إلى جهات كثيرة وفي مقدمتها السلطة الفرنسية خاصة في كتابه المشهور المرآة (1833-1840).

ولم تقصر الدعاية الفرنسية نشاطها في الجزائر فقط بل نشطت في كامل أنحاء أوروبا والبلاد العربية. حيث كانت ردود فعل خاصة من أوروبا ضد هذه السياسة الفرنسية نذكر منها التي حصلت في بريطانيا. إذ على الرغم من أن بريطانيا لم تكن تعارض بقوة سياسة فرنسا في الجزائر وهو أمر طبيعي لأسباب كثيرة، منها عدم وجود مصلحة كبيرة لها ومباشرة في الجزائر. وعدم وجود تأييد داخلي لها سواء من البرلمان أم من العامة التي كانت مشغولة بقضايا داخلية، خاصة بعد موت الملك شارل الرابع في جوان 1830، على الرغم من ذلك إلاّ أن الصحافة البريطانية قامت بدور دعائي ضدّ السياسة الفرنسية بأن حرضت الرأي العام الأوروبي للوقوف ضد فرنسا قائلة: إن فرنسا قادمة على احتلال مملكة أكبر وأغنى من إنجلترا [33]. وكانت جمهرة أخرى من المفكرين الإنجليز قد أولت اهتماما خاصا بالجزائر وفضلت لو تكون الجزائر مستعمرة إنجليزية لا فرنسية من ذلك نذكر الكاتب لفيس (M. Lévis) الذي قال: يمكن أن تكون الجزائر نقطة اتصال بالغة الأهمية بالنسبة إلى تجارتنا مع بقية دويلات البحر المتوسط عبر سلسلة المراكز البحرية التي بها تكون البحرية الإنجليزية قوية في هذا الجزء من العالم. إن الجزائر تضيف إلى مالطة وجبل طارق والجزر الأيونية مكانةً هامة للتجارة الإنجليزية. وكذلك لسلطتنا بنفس القوة التي يضيفها بحر الشمال[34].

مما تقدم يمكن القول أن سياسة الدعاية الفرنسية كانت فاعلة ومتميزة إذ كانت متعددة وأحد الأسلحة التي اعتمدت عليها فرنسا في احتلال البلاد. وبها عرف الجزائريون لونا جديدا من الدّعاية بصدور عدد من الصحف بها حكومية أو مستوطنة أو أهلية.

للدعاية أثر كبير عبر العصور على الرأي العام والخاص. وبالتالي على ميزان القوة وتوجيه السياسة. وتعد الصحافة أحد الوسائل لهذه الدعاية، بل تعد الوسيلة التي احتلت العقول قبل احتلال الأرض والأجسام.

[1] – أعد هذا الموضوع مجلة العلوم الإسلامية بجامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة من عمل ندوي نشره في كتـــاب بعنـــوان مـــن الملتقيات التاريخية الجزائرية

[2]– لمزيد من المعلومات حول تأسيس هذه الجيوش وأنواعها يراجع ما كتبناه في: سيرتا، العدد 12، مجلة صادرة عن معهد العلـوم الاجتماعية، جامعة منتوري–قسنطينة الجزائر 1999، ص–ص. 55–60.

[3]- Shaw (docteur), Voyage dans la Régence d'Alger , traduit de l'Anglais par Mac Carthy, Paris 1830.

[3]- Peyssonnel, et Desfontaines, Relation d'un voyage dans les Régences de Tunis, et d'Alger Gide, Paris 1838, P-P. 292-293.

[4]–سعد الله، أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء 4، دار الغرب الإسلامي، ط. 4، بيروت 1996، ص– ص. 23-46.

[5]–لمزيد من المعلومات يراجع: سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 6، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص. 11.

[6]– توجد مجموعة من الوثائق محفوظة في: A. M. G. H2 بها معلومات هامة عن مهمة هذا الوفد إلى تونس.

[7]– أعد هذا المنشور أو البيان بدقة فائقة. ينظر نصه في: مذكرات الزهار، أحمد الشريف، ش. و. ن. ت. الجزائر 1974. وللمزيد ينظر كذلك ما كتبناه في: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827–1840)، البعث، قسنطينة–الجزائـــر 1987. ص. 100 وما بعدها.

[8]– بعد أن نقلته إنجلترا إلى متحفها انكب العالم الفرنسي جان فرانسوا شمبليون على دراسته مدة 17 سنة، إذ بفضل هذا الحجـــر تمكن هذا العالم من فك العلامات الهيروغليفية. وعد هذا الاكتشاف فريدا من نوعه. وبعد الجلاء الفرنســـي نقلـــت المطبعـــة إلى بولاق. وأخذت اسم مطبعة بولاق بدءا من عام 1821. للمزيد من المعلومات يراجع: عبد الكريم الوافي، محمد، يوســـف باشـــا القارمانلي والحملة الفرنسية على مصر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ط. 1، ليبيا 1984، ص – ص. 205-220.

[9] – سيف الإسلام، الزبير، تاريخ الصحافة في الجزائر ج. 2، ش.و.ن.ت. الجزائر 1982، ص. 6

[10]– كان عمره لم يتعد 45 سنة، شغل مناصب كثيرة أدبية وإدارية ومن هذه المناصب مدير مسرح. وهو أحد المؤسسين لجريـــدة (La mode) وبعد هذه المهام التي كان يقوم بها تولى منصب الكاتب العام لقائد الحملة دي بورمون.

[11]– واجهت الحملة الفرنسية معارضة كبيرة من الفرنسيين السياسيين والكتاب والعامة. لمزيد من المعلومات يراجع كتابنـــا: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، المرجع السابق، ص–ص. 39–55.

[12] – ينظر ملحق رقم 2

[13]– يراجع: سيف الإسلام، المرجع نفسه. ص. 18.

[14]– ينظر ملحق رقم 3

[15]– ينظر ملحق رقم 4

[16]–ورقة خبور الجزائر العدد 34، في تاريخ 19 سبتمبر 1832 ينظر ملحق رقم 5

[17] – ينظر: ورقة خبور الجزائر، العدد 71، في تاريخ 31 ماي 1833. ملحق رقم 6

[18] – جريدة المبشر، العدد 8 في تاريخ 1847/12/30.

[19] - Moniteur algérien, n° 52, du 19 janvier 1833. Voir document N° 4.

[20]– واستمرت في الصدور إلى غاية عام 1858 حيث اتخذت عنوانا آخر هو "النشرة الرسمية للجزائر والمستعمرات" (Bulletin officiel de l'Algérie et colonies) إلى غاية 1861 وهي فترة وزارة الجزائر والمستعمرات. بعدها أخذت عنوان: "النشرة الرسمية للحكومة العامة".

[21]– صنف زهير إحدادن الصحافة في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي إلى خمسة أنواع هي: الصحافة الحكومية والصحافة الكولونيالية والصحافة الحكومية المناصرة للأهالي(Indigènophile) والصحافة الأهلية (Indigène) والصحافة القومية (Nationaliste) للمزيد يراجع:

- Ihaddaden (Z.), Histoire de la presse indigène en Algérie, E. N. A. L. Alger 1983, p-p. 13-18.

[22]– صدرت بالفرنسية ثم باللغتين واستمرت في الصدور إلى غاية 1934.

[23]– سيف الإسلام. المرجع السابق. ص. 66. وكذلك عواطف عبد الرحمن، الصحافة العربية في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، الباب الأول.

[24]– واستمرت في الصدور إلى عام 1927.

[25]– رسالة ديفو في تاريخ 1855/12/31. A. B. I. M737 ينظر ملحق رقم 7

[26] – قد تكون هذه الرسالة من الزيبان في تاريخ1833/4/14 مرسلة إلى حاكم عنابة مونك ديزر A. M. G.H20 ينظر ملحق رقم 8

[27]–سيف الإسلام، الزبير، تاريخ الصحافة في الجزائر ج 2 ص. 41.

[28]–استمرت أعدادها في الظهور إلى عام 1962.

[29]-A. O. M. F80/1846, (cité par Turin (Y.), Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, E. N. A. L. Algérie 1983 p .15).

[30] – مطبعة باستيد، الجزائر 1863.

[31]– للمزيد حول استغلال المناجم في الجزائر يراجع:

Savornin (Justin), La géologie algérienne et nord africaine depuis 1830, Paris 1931.

حيث تناول في الفصل الثاني مرحلة أعوام 1830–1847 وخصص الفصل الخامس لدراسات عن الصحراء.

[32]– معظم المراسلات الموجهة باللغة العربية من القادة كانت موقعة باسم مترجم مثل: "كاتب الأحرف عن إذن سعادة المارشال الترجمان حنا فرعون".

[33] - Serres, op. cit. , p. 40.

[34]– للمزيد من المعلومات يراجع: ----- Conte (B.) , De L'Algérie et de sa colonisation, p. 19.

ملاحق

L'ESTAFETTE
D'ALGER,
Journal de l'Armée Expéditionnaire
ET DE LA MÉDITERRANÉE.

ملحق رقم 2 للصفحة الأولى لأول جريدة ظهرت في الجزائر

28 Juillet. 26. Année 1832.

ورقة خبور الجزايس

MONITEUR ALGÉRIEN,

JOURNAL OFFICIEL DE LA COLONIE;

ANNONCES JUDICIAIRES, ADMINISTRATIVES, COMMERCIALES ET MARITIMES

ÉTAT-MAJOR GÉNÉRAL.

Alger, 28 juillet 1832.

ملحق رقم 3

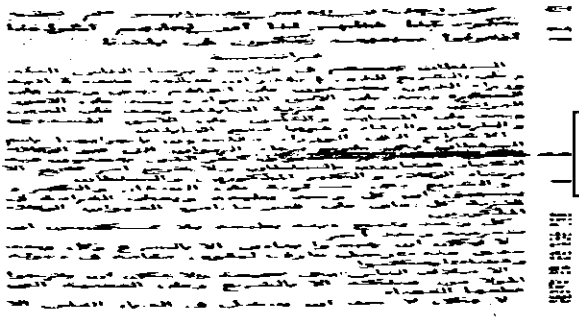

ملحق رقم 4

اعلم

لمين يحب يتعلم اللغة العرابية من اهل العرب ان المعلم حنابن لياس فرعون ترجمان كاتم سّر حضرة سعادة الجنيرال الكبير سلطان الجزاير يفتح فى داره اسكوه (مدراسة) ويعطى لسيون ثلاثه ايام فى الجمعة وهم الثلث الخاميس والسبت من السعة سابعة الى ثمانية ونسف بلسهرة (عداد الفرنج) وهذا التعليم يدوم ستة اشهر والثانى يكون ستين فونك ثلاثين نغدًا والباقى فى مابعد ۞ ثم

ملحق 5

مدرسة الفرنصيص ولكن مراده هو ان هـــ الامر يكون على خاطرهم ۞ اعلموا ان راجل الجاهـ الذى ليس عالم او عارف يدحكوا ويتمسخروا على الناس وربنا يعاقب ناس فاكرين الجميل ۞

ملحق 6

ملحق 7

ملحق8